

المصطلح في استراتيجية النقد الأدبي

محمد مفتاح نموذجاً

د/ عمر عيلان

أ/ فاضل دلال

جامعة خنشلة

Résumé:

La problématique **Concepts / Termes** a suscité une dialectique et une confrontation d'ordre épistémologique autour du projet de la critique littéraire qu'a lancé Mohamed Meftah. Ce dernier inspire ces concepts a partir de la linguistique, la sémiologie, ainsi qu'a d'autres domaines de la science..Il investit des termes du patrimoine arabe dans ses lectures et études textuelle.En utilisant plusieurs mécanismes, il arrive a formuler une terminologie pour la critique littéraire, qui se base sur le questionnement épistémologique. Quant au niveau conceptuel et théorique Meftah procède a une formulation qui prend en compte pour sa solution, plusieurs paramètres qui relèvent de la spécificité du texte littéraire arabe et cela dans l'optique de réduire la problématique de la formulation des concepts.

المُلخَص:

أثار سؤال المفاهيم/المصطلحات جدلاً معرفياً حول المشروع النقدي لمحمد مفتاح. إذ امتاح مصطلحاته من اللسانيات و السيميائيات، إلى جانب انفتاحه على أنساق علمية عديدة، و استثماره لمصطلحات تراثية عربية قصد توظيفها في قراءاته النصانية، متبعاً آليات عديدة في صياغة المصطلح النقدي. إذ تجده يقرأ المصطلح بأساليب علمية دقيقة، فيتناول اشكالياته المعقدة باستراتيجية قوامها المساءلة الابستمولوجية، فهو لا يوظف المفهوم إلا بعد محاورته، و تأكده من قدرته و كفاءته على قراءة النص و كشف دلالاته، ثم يكيفه مع خصوصيات النص العربي، مع الحرص على تقديم حلول و ضوابط علمية تنظيرية تخفف من حجم الإشكالية.

تمهيد

الأکید أن المصطلح خلاصة العلوم وأبجدية التواصل المعرفي ومفاتيحه الأولى فهو "تعميم أو تجريد ذهني لظاهرة أو حالة أو إشكالية علمية أو ثقافية. ولذا فهو يقترن بنضج ظاهرتي التعريفات والتصنيفات العلمية في أية ثقافة إنسانية، وهو من الجانب الآخر مظهر مهم من مظاهر الوحدة الذهنية والثقافية للأمم، كما يمثل في الجانب الآخر قاسما مشتركا بين الثقافات الإنسانية المختلفة"⁽¹⁾. يتضح من هذا التعريف أن المصطلح يتأسس في جوهره على مدلول مفهومي تؤطره خصوصيات الحقل المعرفي الذي نشأ فيه، ويعبر عنه بديل لغوي، إلى جانب كونه لغة مشتركة بها يتم التواصل بين الناس.

وهذا ما ذهب إليه عبد السلام المسدي في قاموسه إذ يقول: "مفاتيح العلوم مصطلحاتها ومصطلحات العلوم ثمارها القصوى. فهي مجمع حقائقها المعرفية وعنوان ما به يتميز كل واحد منها عما سواه. وليس من مسلك يتوسل به الإنسان إلى منطق العلم غير ألفاظه الاصطلاحية حتى لكنها تقوم من كل علم مقام جهاز من الدوال ليست مدلولاته إلا محاور العلم ذاته ومضامين قدره من يقين المعارف وحقيق الأقوال"⁽²⁾. بين هذا القول أن المصطلح هو أداة تطور العلم والمعرفة، وأن لكل علم منظومته المصطلحية التي تميزه عن باقي العلوم.

ويواصل عبد السلام المسدي في تعريفه للمصطلح مبينا أنه "إذا كان اللفظ الأدائي في اللغة للمواضعة الجماعية فإن المصطلح العلمي في سياق نفس النظام اللغوي يصبح مواضعة مضاعفة، إذ يتحول إلى اصطلاح في صلب الاصطلاح. فهو إذن نظام إبلاغي مزروع في حنايا النظام التواصلية الأول، فهو بصورة تعبيرية أخرى علامات مشتقة من جهاز علامي أوسع منه كما وأضيق دقة"⁽³⁾.

يؤكد هذا التعريف أن المصطلح رمز وضع بكيفية اتفاقية بين فئة من المختصين في حقل معرفي معين. وإذا كان المصطلح علميا في سياق النظام اللغوي نفسه فإن المواضعة تصبح مضاعفة. هذا بالنسبة للتعريف العربي للمصطلح أما عن التعريف الأوروبي فهو "الكلمة الاصطلاحية أو العبارة الاصطلاحية مفهوم مفرد أو عبارة مركبة استقر معناها أو بالأحرى استخدامها وحدد في وضوح، هو تعبير خاص ضيق في دلالاته

المتخصصة، وواضح إلى أقصى درجة ممكنة. وله ما يقابله في اللغات الأخرى ويرد دائما في سياق النظام الخاص بمصطلحات فرع محدد فيتحقق بذلك وضوحه الضروري⁽⁴⁾. فهذا التعريف يبين بوضوح أن للمصطلح سماتا متعلقة به أهمها سماتا الدقة (الضيق) والوضوح؛ بوصفهما من المعايير الأساسية في صياغة المصطلح. كما أنه يؤكد أن المصطلح قد يكون عبارة مركبة إلى جانب كونه لفظة واحدة. وانطلاقا من التعريفات السابقة يتضح أن المصطلح أداة من أدوات التواصل، ووسيلة من وسائل قراءة النصوص الأدبية.

هذا بالنسبة للمصطلح بصفة عامة، أما عن المصطلح النقدي فهو "يشمل مصطلحات علوم عديدة كالنقد، والبلاغة، والأدب والعروض والقافية... الخ"⁽⁵⁾ إذن فالمصطلح النقدي يتميز بخصوصية دلالية ومعرفية، يقترب من خصوصية الرمز اللغوي، سواء أكان مفردا أو مركبا، وتتحصر دلالاته في المكون الدلالي والمفهومي الذي يربطه بصورة مباشرة بالدلالة النقدية الواضحة المتفق عليها والمتداولة بين المشتغلين بحقل معرفي، فهو شفرة الخطاب النقدي لولاه لما كانت المعرفة، ولما حدث التواصل، وتحدد هويته كمصطلح بشيوعه - حتى على علته-. وتداوله.

المصطلح والمفهوم

دون شك أنه من الضرورة بمكان أن نتحدث عن ماهية المفهوم عند التطرق إلى قضية المصطلح؛ ذلك أنه من الثوابت المعرفية المطلقة أن لكل مصطلح مفهوما يحدد فكرته التي يرتكز عليها، ويبين هويته التي تعكس الجوهر الحضاري له. فالمفهوم هو بمثابة بنية مركزية تتشكل وفقها التصورات المتجانسة والمتفاعلة بما يكسبها طبيعة منسجمة ومتكاملة. هذا التكامل والتجانس ينعكس بصورة مباشرة على صياغة الحقل المعرفي الذي يتحرك في سياقه المعنى والمجال المعرفي. ومن هنا فإن المعرفة تنضبط بالضوابط المفهومية التي ترتبط في أصولها الأولى بالمنظور والرؤية الفلسفية. وتحديد المفهوم يسهم بصورة واضحة في تسييج المجال العلمي بحدود قيمية تمثل نمط الرؤية في إدراك الواقع وإعادة صياغته بما يتناسب والمجال المعرفي المتداول. فالمفهوم يمثل من جهة أخرى الفكرة المركزية والجوهرية التي ترتكز عليها الطبيعة الفكرية لدى الإنسان إذ يحتل أهمية بالغة في ضبط الفكر الإنساني عموما، والفكر العلمي على وجه التحديد؛ لأنه

يعكس تركيب الواقع وتطوره وإدراكه، ويؤثر على البنية المعرفية المستعملة، ويحدد البنية العلمية لمنتجيه، كما يؤثر على السياق الفكري الذي يوظف فيه⁽⁶⁾. في ضوء هذا الطرح يتضح أن المفهوم مرتبط بالصورة الذهنية الموجودة على مستوى العقل فـ"المفهوم -إن- هو ما يمكن تصوره وهو عند المنطقيين ما حصل في العقل سواء حصل فيه بالقوة أو بالفعل. والمفهوم والمعنى متحدان بالذات فإن كلا منهما هو الصورة الحاصلة في العقل أو عنده، وهما مختلفان باعتبار القصد والحصول، فمن حيث الصورة مقصورة باللفظ سميت معنى، ومن حيث أنها حاصلة في العقل سميت بالمفهوم"⁽⁷⁾.

هذان التعريفان يحيلان إلى أن المفهوم هو التصور الذهني للأشياء أي إنه المدلول بلغة دي سوسير، بينما المصطلح هو صيغته اللفظية الدالة عليه. وعلى هذا الأساس فإن المفهوم هو المتحكم في تحديد المصطلح، ومن ههنا تتجلى القيمة التمييزية للمصطلح في رحاب كل حقل معرفي، وهذا ما يؤكد أن المصطلح النقدي لا ينحت من العدم وإنما يكون حاملا لدلالات الحقل المعرفي الذي نشأ فيه، أي إن له ثوابت معرفية ولغوية مطلقة، وخصوصية تربطه بجذوره الأولى سواء أكانت فكرية، أم فلسفية، أم دينية تجعله محملا بزخم معرفي وفكري خاص بالحقل الذي تشكل فيه فيكتسب مفهومه ودلالته الأولى "ذلك أن المفهوم الذي ينطوي عليه شكل المصطلح يتعدد، تبعا لتعدد حقول المعرفة من جهة، وتبعا لأثر التاريخ الذي يتطور في ضوئه ذلك الحقل"⁽⁸⁾.

وهذا ما يعني أن كل مصطلح يتغير مفهومه ودلالته تبعا للحقل المعرفي الذي ينتمي إليه، بحيث يحيد عن دلالته الأولى كلما انتقل إلى حقل جديد، وهذا ما يجعل من الحفر في الأصول والمرجعيات اللغوية والاصطلاحية للمصطلح أمر صعب، وتتأتى هذه الصعوبة من ارتحال المصطلح من حقل لآخر، هذا الارتحال الذي يحدث تغيرات في مفهومه والمتمثلة في "الظهور الدلالي أو التضخم الدلالي، أو الانحراف الدلالي، بسبب اتساع حقل المعرفة وتشابكه مع حقول معرفية مجاورة. وكل هذا يعرض المفهوم الأصل للمصطلح إلى هزات عنيفة، ربما يفضي الأمر إلى حدوث تخريب دلالي في بنية المصطلح الشكلية والدلالية"⁽⁹⁾. إذن فالمصطلح هو المرآة الكاشفة لأبنية كل الظواهر العلمية المجردة والأدبية حيث أنه يبتكر في حقل معين يحمل مفهوما معينا يوضع عليه،

وقد يقذف به في حلبة حقل آخر مما يفقد خصوصيته الأولى ويحمل خصوصية الحقل الجديد فإما أن يروج فيثبت ويتداول، وإما أن يكسد فيختفي ويضم.

علاقة المصطلح بالمنهج

إن بين المنهج والمصطلح النقديين قرابة تجعل من العسر بمكان أن يفهم أحدهما بمعزل عن الآخر، فأتساءل القراءة النقدية لا يستطيع الناقد أن يستغني عن المنهج أو عن المصطلح؛ ذلك أن القراءة المنهجية تقتضي التوظيف الاصطلاحي كما أن المصطلح يحدد المسار المنهجي للقراءة؛ "بمعنى أن العلاقة ما بين المنهج في القراءة لا بل القراءة، أيا كان منهجها، والمصطلح وثيقة اللحم والسد، من هذه الزاوية يمكن أن نفسر اختلاف المصطلح من قراءة إلى قراءة، ومن هذه الزاوية أيضا يمكن أن نفهم شيوع مصطلحات ما دون غيرها من المصطلحات في قراءة دون قراءة"⁽¹⁰⁾. فهذا ما يؤكد أن العلاقة بين المنهج والمصطلح تتسم بالالتحام والتفاعل، ويفسر أيضا أن كل علم له منظومته الاصطلاحية الخاصة به، والتي تميزه عن غيره من العلوم.

وقد يلجأ الناقد في ضوء منهج معين إلى توظيف مصطلحات محددة إذ إن "استخدام مصطلحات بعينها يشكل علامة على المنهج المتبع، وهذه المسألة لها أهمية بالغة (...). بل يمكن اعتبارها مرشدا أساسيا لتبين منهج الناقد، وإذا تعددت المصطلحات من مصادر منهجية مختلفة، يمكن لإحصاء بسيط أن يكفي لإظهار المنهج الغالب أو المنهج المحتضن لمناهج أخرى تبدو هامشية"⁽¹¹⁾.

من الواضح إذن أن المصطلح بوصفه وحده لغوية، يحدد هوية المنهج المتبع، وقد يلجأ المحلل النصائي -أحيانا- في بحثه عن المعنى إلى أكثر من منهج واحد، وفي عمرة التعددية المنهجية هذه يمكن الكشف عن المنهج الغالب عن طريق عملية إحصاء المصطلحات النقدية الموظفة وتصنيفها حسب الحقول الاصطلاحية ومن هنا يتجلى المنهج الغالب بوضوح، لأن المصطلح هو الذي يضبط حدود المنهج.

أصبح المصطلح -إن- وثيق الصلة بمنهجه، إذ إنه الأداة التي تساعد على وصف الإنتاج الأدبي، وهذا ما يؤكد أن لكل منهج جهازه الاصطلاحي الخاص به. "فالقراءة الاصطلاحية قراءة منهجية من نوع عال، لا يمكن أن تقل جدوى عن ضروب القراءة الأخرى، بل يمكن قراءة الخطاب النقدي برمته من خلال تفكيك جهازه

الاصطلاحي"⁽¹²⁾. إذن فقد بات من المعلوم أن المصطلح أداة يعتمد عليها الناقد لكل قراءة، به يلج إلى عالم الفن الرحب، ليؤكد على دلالاته المختلفة بفك بنائه اللغوي والتركيبي، قصد إعادة بنائه من جديد في ضوء المنهج المتبع. فالعلاقة بين المنهج والمصطلح تقوم أساساً على مبدأ التجاذب والتفاعل بينهما. وهذا ما يفسر أن لكل منهج نقدي جهازه الاصطلاحي الخاص به.

المصطلح في إستراتيجية محمد مفتاح النقدية

تعد المفاهيم/ المصطلحات من أهم القضايا التي تثير جدلاً معرفياً حول المشروع النقدي لمحمد مفتاح والتي تأتي في طليعة اهتماماته، إذ ما يميز خطاب المفاهيم عنده طابعها النسقي الناجم أصلاً عن رؤيته الشمولية المتعددة الأبعاد إلى المعارف والعلوم. "وأهم تلك الأبعاد هو التوليف بين أطراف كانت تبدو متناقضة، مثل الجسم والروح والعقل والقلب، والطبيعي والإنساني وهو نشر قيم التسامح في غير تخلي والاختلاف من غير تشردم وعصبية والحرية في إطار المسؤولية"⁽¹³⁾. إذ وأنت في رحاب منجزاته النقدية تستشف بوضوح أن مصطلحاته النقدية تنتمي إلى نظريات متعددة المرجعيات من نظرية علم النفس المعرفي، نظرية الذكاء الاصطناعي، و الأنثروبولوجيا، البيولوجيا، السيمياء، التداولية، المنطق والرياضيات.

بهذا التوجه أراد أن يؤكد على وجود علاقات متينة بين النظريات إذ يقول "تجد من يعتقد أن بين تلك النظريات حدوداً، لا يمكن اجتيازها[....] إن الأمر بخلاف المعتقد المذكور، ذلك أن من يُعمل فيها بعض النظر يجد بينها تداخلاً كبيراً وتقاطعات شتى، وصلات وثيقة"⁽¹⁴⁾. إذ في ضوء تعددية النظريات تلك، تجد مفاهيم علمية دقيقة كمفاهيم الهندسة (التناظر، التوازي)، ومفاهيم البيولوجية (الانتقاء، التنظيم الذاتي، التناسل، النمو، التوليد، التوازن، الصراع، ...) ومفاهيم نظرية الذكاء الاصطناعي (الأطر، المدونات، القمة القاعدة، القاعدة القمة...) إلى جانب مفاهيم لسانية و سيميائية. وهذا ما يوضح فعلاً بأن نظريته للمعرفة كانت نظرة شمولية توحيدية، وهو ما أعده الناقد مسوغاً من مسوغات انفتاحه على بقية العلوم.

إن كان هذا حال نظريته للمعرفة بصفة عامة فإن المفاهيم عنده هي "جوهر اللغة الطبيعية العادية ولب اللغة العلمية الاصطناعية؛ فالمفاهيم هي ما يجعل الإنسان يفرق بين

شيء وشيء، وكائن وكائن، وكيان وكيان. لكن المفاهيم محتاجة إلى نسق يضم بعضها إلى بعض لربط صلات وعلائق بين أثار الكون، حتى يتحقق نوع من الانسجام والاتساق بين الأثار بعضه ببعض وبينه وبين الإنسان. مفاهيم المرحلة الطبيعية هي وليدة الإدراك العمومي الذي لا يهتم كثيرا بالتدقيقات والتفاصيل ورسم الحدود؛ ومفاهيم المرحلة الاصطناعية هي نتيجة التدقيق والتحديد، وهي مجال الباحثين من العلماء على اختلاف تخصصاتهم⁽¹⁵⁾. ويضيف قائلا: "إن مفاصل الصناعة النظرية هي المفاهيم سواء أكانت مفاهيم أولية أم مفاهيم لها تحديدات جامعة مانعة، أم لها تغيرات مسندة إليها توضح علائقها ووظائفها"⁽¹⁶⁾.

إن منظور محمد مفتاح للمفاهيم يتأتى من وعيه التام بدورها الحاسم في إحداث التواصل، وإسهاماتها الفعالة في تقدم العلوم إذ بها تتميز الأشياء. وتحدد رؤيته -أيضا- انطلاقا من تفرقة بين نوعين ومرحلتين من المفاهيم؛ مفاهيم غير محددة تندرج ضمن المرحلة الطبيعية، ويقصد بها مفاهيم اللغة العادية التي يتواصل بها الناس؛ هذه الأخيرة التي لا تولي اهتماما برسم الحدود الفاصلة بينها. أما النوع الآخر فهي المفاهيم المحددة التي تخصص المرحلة الاصطناعية؛ أي مفاهيم اللغة العلمية التي تتطلب التدقيق والضبط باختلاف التخصصات.

ويواصل الناقد اهتمامه بإشكالية المفاهيم حيث يرى بأن المؤكد أن الحديث عن طبيعة هذه الإشكالية يستدعي حتما الحديث عن مصادرها. فـ"على أساس مصدر المفاهيم تتحدد طبيعتها ومداهها، فمن وجهة النظر العقلانية فإن المفهوم شمولي وضروري ومستقل، ومن وجهة نظر التجريبي فإن المفهوم مرتبط بشيء ما في وقت ما، ومن ثمة فإنه نسبي قابل للتحويل والتبديل و الإلغاء ... وأما العقلاني التجريبي فيقر بوجود مصدرين للمفاهيم؛ أحدهما الإنسان في كليته، وثانيهما السياق في شموليته"⁽¹⁷⁾. وفي الحقيقة فإن المصدرين الآخرين اعتمد عليهما الناقد محمد مفتاح أثناء تشريحه للمفاهيم.

فضلا على ذلك فقد تحدث الناقد عن تصنيفات المفاهيم طبقا لما نقول به الأدبيات المعاصرة، التي اختزلت التصنيفات الثلاثة للمفاهيم من المفاهيم الترتيبية، والمفاهيم المقارنة، والمفاهيم التكميلية إلى تصنيفين هما :

أ-المفاهيم الترتيبية: ويقصد بها تلك المفاهيم التي تنهض أساسا على أنواع العلائق؛ وهي المشابهة والأسبقية والاحتواء، والتبعية. وتتحقق هذه العلائق في ضوء المبادئ الميتافيزيقية والمبادئ الأنطولوجية. "فالمبدأ الميتافيزيقي الأنطولوجي يجعل تلك التولدات الترتيبية نابعة من أصل وحيد، والمبدأ الأنطولوجي التجريبي يري أن تلك التولدات ينتج بعضها عن بعض"⁽¹⁸⁾.

ب- المفاهيم المقارنة: يقوم هذا النوع من المفاهيم "على منطق هذا ولا هذا وأكثر أو أقل، مما أدى إلى القيام بتدرج المفاهيم وترتيبها [...] بغض النظر عن التقابل بين المنطق الصوري والمنطق المترج، أو بين أرسطو وبوداه، ويقطع النظر عن تبادل العبارات القوية فإن ما يهمنا نحن هو أننا وظفنا مفهوم التدرج أدى إلى نتائج حسنة مع بعض الأعراض الجانبية؛ بل إننا اتخذنا شعارا لنا هو: المفاهيم معالم"⁽¹⁹⁾. فمحمد مفتاح - إذن- اتخذ من التدرج مبدءا له في تعامله مع المفاهيم التي وظفها في قراءته.

في ضوء رؤيته المنفردة هذه للمعرفة وللمفاهيم التي امتاحها من أنساق معرفية مختلفة بغية تحليل النصوص الأدبية، قد رسم الناقد بوضوح معالم جهازه المفاهيمي/الاصطلاحي حيث الحوار والتواصل بين الأنساق، والخلفيات المعرفية للحضارات البشرية وفي هذا المستوى يصبح المصطلح في نهايته كيانا ثقافيا يحمل الملامح والأبعاد التي تختزن سيرورة الجهد المعرفي الإنساني وخبرته الدالة. ومن هذا المنطلق يحاول الناقد تفحص مبادئ المفاهيم وتتبع خلفياتها قبل أن يختبرها في تطبيقاته على النصوص. إن الأساس الذي تقوم عليه مفاهيم الناقد هو البحث عن خلفياتها العلمية والابستمائية، وذلك بالرجوع إلى أصولها البيولوجية أو الفيزيائية أو الرياضية أو الإعلامية، مما يمكن من تحديد أرضية مشتركة بين مفاهيم تبدو في ظاهرها متنافرة وما هي كذلك. وهكذا يؤكد محمد مفتاح رؤيته الشمولية للمفاهيم.

فاهتمامات الناقد بالمفهوم بحد ذاته "تعود إلى خبرته الطويلة في الدراسة والتدريس والقراءة والكتابة؛ أي تحليل النصوص بمختلف أنواعها سواء أكانت محاور للبحث والتفكير، أم مراجع تمده بالمفاهيم والمصطلحات والنظريات والمناهج"⁽²⁰⁾. هذه الاهتمامات تقربه من القيمة الدلالية للمصطلح التي يحملها في ثقافة المنتج قبل أن ينقلها

إلى ثقافته ويختبرها على النصوص، لأنه عن وعي تام بأن المفاهيم تكسب المنهج إجرائيته لذلك تجده يقيم حوارا معرفيا معها.

إذا كان هذا هو التصور العام للمفهوم عند الناقد محمد مفتاح، فإن المصطلح النقدي عنده يتطلب دراسة عميقة وعودة إلى أصول دلالاته قبل إشاعته، حتى يكون محملا بخاصية الفهم والاستيعاب. والواقع أن هذا التصور يؤكد على أن محمد مفتاح من أكثر النقاد العرب اهتماما بالمصطلح اللغوي، واللساني والعلمي. إذ يتعامل معه بإستراتيجية مميزة قوامها التأمل والمساءلة الأيستمولوجية. ولعل الملاحظة التي يمكن تسجيلها عند النظر في مصطلحات الناقد بأن مساره ذو منحنيين: أحدهما تراثي؛ حاول فيه الناقد الإفادة من مصطلحات البلاغة العربية، بدليل اطلاعه على كتب البلاغيين والنقاد العرب، والمنحى الآخر حديثي من خلاله امتاح مصطلحاته من الثقافة الأوروبية والثقافية الأنجلوساكسونية.

ومن المؤشرات المركزية لتشييد المعنى في فكر محمد مفتاح، أنه يتبنى مقولة "المعنى يبني ولا يعطى مع تقييد عملية البناء بحدود دلالية معرفية وتداولية؛ مثل مبدأ التأويل المحلي والسياق وقاعدة الربط بين التحليلين الدلالي والمعرفي في بناء المشاكل. مما يعني الحرص في مشروعه على تعالق مختلف المفاهيم والمبادئ التشييدية"⁽²¹⁾. ولهذا كانت منطلقاته الفكرية تقوم أساسا على إعادة النظر في المفهوم في ثقافته الأصلية، وفي سياقه الأول فيضبط حدوده الدلالية والمعرفية ويقوم معه حوارا ومناقشة علمية دقيقة يعرض فيها جميع الآراء الواردة حوله.

بهذا المنطلق يسعى إلى ضبط المفاهيم الإجرائية قبل أن يستعملها كأداة يصف بها الخطابات الأدبية، إذ تجده "يتوسل بكل الحقائق العلمية والمنهجية لضبط مفهوم مركزي والإحاطة به من زوايا ومنظورات متعددة بالتحليل والنقد"⁽²²⁾. وتتجلى هذه الاستراتيجية بوضوح في كتابه " المفاهيم معالم " أين حاول الناقد أن يتعرض بالتحليل والنقد إلى مصطلح النص في الثقافتين اللاتينية والعربية معتبرا إياه مفهوما مركزيا، كما يكشف عن مفاهيم، اللانص، شبه النص، التناص، والنصنصة.

1- إستراتيجية المقارنة

بعد أن يقوم الناقد بمساءلة المفاهيم في إطار فضائها الثقافي يجنح إلى استراتيجية المقارنة بين المفهوم في الحقل الغربي وبين ما يقابله في الحقل العربي، إذ يتأمل في أبعاده ودلالاته في الثقافتين بغية الحصول على عنصر الملاءمة أثناء التجريب، ومن أجل تحقيق غايته يستند "في ذلك على جملة من المبادئ النظرية والمنهجية منطلقاً من البحث التاريخي المقارن، من جهة لإبراز أصول المفهوم في الثقافتين الغربية والعربية. وبعد ذلك تجده يعمل على مقارنة مفهوم النص- والمفاهيم الأخرى الموظفة- ضمن شبكة المفاهيم التي ينتمي إليها داخل التراث الإسلامي، وأخيراً تعاطى مع المفهوم بهدف التمكن من تحديد "ماهيته" ومستوياته الدلالية والتأويلية وتعالقاته الكائنة والممكنة بوضع مفاهيم متدرجة ومتشابهة حتى يتم النظر في ضوء طبيعته ووظيفته من جهة ثانية"⁽²³⁾. إذن فمراهنة محمد مفتاح على مبدأ المقارنة لضبط المفاهيم يؤكد على أن الناقد منحرر من الأحكام الذاتية الانطباعية، إلى جانب ذلك يقوم بتحقيق عنصر التفاعل مع المفاهيم الغيرية.

2- تكيف المصطلح:

يأخذ مبدأ تكيف المصطلح مع معطيات الثقافة العربية موقعاً شديداً الأهمية في المشروع النقدي لمحمد مفتاح، إذ تجده في تأملاته للمفهوم/المصطلح ومراجعته لخلفياته يستعيد ويؤول فيه حسب ما يتلاءم ومعطيات الثقافة العربية، إذ يرى بأن "المضامين الاصطلاحية للمفاهيم تتغير مضامينها بتحول التصورات والنظريات والثقافات والمعتقدات (تغير مضمون مفهوم النص والحقيقة) واستراتيجيات الباحثين وأهدافهم وغاياتهم، مما يجعلهم يتبنون مضمونا معيناً ويحملون مع المفاهيم معاني خاصة [...] مع المحافظة على نواة قارة للحقيقة حتى يتسنى تجنب الذاتية المفرطة واللا أدوية والعدمية"⁽²⁴⁾.

يؤمن الناقد -إن- بأن لكل ثقافة خصائصها ومبادئها، وقد أدى به هذا الإيمان إلى تبني مبدأ تكيف المصطلح الوافد إلى ثقافته، فهو على وعي بأن مضامين المصطلحات تتغير بتغير التصورات، والثقافات، والمعتقدات، وأهداف الباحثين وغاياتهم، وهذا ما يسوغ له تحميل المصطلح مضمونا خاصاً يتوافق ومنطلقاته، إذ إنه

يرفض أن يأخذ المصطلح جاهزا بل يسعى إلى مناقشته وتعديله، وهذا ما يؤكد فعلا بأنه يملك من الوعي ما يمكنه من إحداث تغييرات على المصطلح.

ومن الأمثلة عن تعديلاته في المفاهيم/المصطلحات، اقتراحه نموذجا جديدا لخصائص التوازي في معرض حديثه عن طبيعته، إذ يرى بأن النمذجة المذكورة غير دقيقة وغير شاملة لمكونات القصيدة الشعرية" النبي المجهول " للشاببي. فمن حيث إنها غير دقيقة لأن القارئ لن يجد توازيا مطابقا بين البيت السادس والبيت الرابع؛ ومن حيث إنها غير شاملة فإن تلك النمذجة لم تقدم مقترحات تثبت التوازي بين أبيات القصيدة جميعها، وإجابة عن هذا الاعتراض سننضم خطوة أخرى فنفتتح نمذجة لخصائص التوازي كما اقترحنا نمذجة لطبيعته، وعليه فإن هناك توازيا مطابقا وتوازيا مماثلا، وتوازيا متشابهها وتوازيا متسلسلا"⁽²⁵⁾.

كما اتجه الناقد صوب التراث للاستفادة من مصطلحات بعض النقاد والبلاغيين العرب، وينأى هذا التوجه من قناعته الراسخة من أن التعاضد القائم بين الدرس البلاغي والنقدي العربي بإمكانه تفكيك عقد المصطلح اللساني والسميائي. فالناقد لم يرق قطيعة أو شرخا مع التراث بل دعا إلى إحياء مصطلحاته، وتتجلى هذه الرؤية في دراسته لمفهوم "التناص" في كتابه (تحليل الخطاب الشعري)، حيث حاول دراسة بعض المفاهيم التي تعرف تداخلا كبيرا معه، كمفهوم السرقة مثلا الذي اعتبره نواة نظرية التناص الغربية، كما اقترح مفاهيم أخرى كالمثاقفة، الأدب المقارن، دراسات المصادر⁽²⁶⁾. واللافت للانتباه أنه يتعامل مع المصطلح النقدي العربي القديم في ضوء سياقه العام لكي لا يفقد دلالاته الأصلية.

3- مساءلة المفاهيم العلمية:

وتعد استراتيجية مساءلة المفاهيم العلمية الدقيقة استراتيجية بارزة في تعامله مع المصطلح، إذ إن مرجعيته تجاوزت حدود العلوم الإنسانية منها إلى العلوم التجريبية. لأنه يؤمن بالاتصال لا الانفصال بين العلوم، لذلك تجد العديد من المصطلحات المستقاة من النظريات العلمية موظفة في كتاباته النقدية، إذ يرى بأنه "يمكن الاستفادة منها في مجال التحليل الأدبي والاجتماعي بتحوير أو تعديل أو حذف أو زيادة في المبادئ العامة التي تستند إليها العلوم التجريبية"⁽²⁷⁾. فحين يستعير الناقد بعض

المصطلحات العلمية لمعالجة الظاهرة الأدبية يستعيرها بوعي معرفي ورؤية إبستمولوجية، إذ تجده يحولها عن إطارها الأول إضافة أو حذفاً أو تعديلاً. حسب الناقد فإن نقل أي مفهوم يجب أن يخضع لتأمل عميق، وتحليل لحثيات انبثاقه، وشروط إمكان وجوده وأبعاده وحدوده وتطوره حتى يتجنب تشويه المفهوم وتشويه المجال المحلل. هذا ما يؤكد أن الناقد عن وعي بأن نقل مصطلح من بيئة إلى بيئة مغايرة تماماً يتطلب استراتيجية دقيقة تتمثل في الكشف عن البنيات العميقة للمصطلح، حتى لا تتشوه دلالاته.

وتجنباً لهذا يقترح الناقد مقياسين استند عليهما في نقل المفاهيم من الحقول المعرفية الدقيقة إلى مجال تحليل النصوص الأدبية وهما⁽²⁸⁾:
أ - الشمولية: ويقصد بها أن بعض المفاهيم وظفت في مجالات علمية متعددة وأدت إلى نتائج متطابقة في الوصف والتأويل.

ب - الخصوصية: وتعني مراعاة طبيعة كل ظاهرة محللة وخصوصيتها، أي إن المصطلح لا ينقل حرفياً بخصائصه وإنما يعدل ويكيف مع لغة النقد.

بهذا أقام الناقد جهازاً اصطلاحياً إجرائياً متعدد الحقول المعرفية، فتجد مفاهيم النمو، التناسل، الدينامية، الترابط، التناسل، التشعب، النسقية الإبستمولوجية، التشيدية، المقصدية، التلقي، المماثلة، التأويل، الانسجام، الاتساق، المناقفة، التماسك، التوازي، النص الممكن، النص المحتمل، الاتصال، الانفصال، التفاعل، وغيرها من المفاهيم. إذ وفي ضوء نظريته الشمولية للمفاهيم يحاول أن ينتقيها من علوم ونظريات مختلفة، ثم يوظفها في نسق واحد، ومن ذلك نحته لمفاهيم من نظرية الكوارث، والنظرية السميائية، ونظرية الذكاء الاصطناعي كمفهوم التشعب والترابط والتمايز، إذ يرى بأنها متكاملة رغم تباين مرجعياتها.

و"إذا كان التشعب وسيلة للفوضى فإن المماثلة وسيلة لضمان الاتساق والانسجام بين أجزاء الكون والنص، كما أن الترابط عامل انسجام أيضاً، وكلاهما مع التمايز عوامل نمو وخصوصية"⁽²⁹⁾. فالمفاهيم التي وظفها تتصف بالتعلق. إن الأطروحة التي يؤمن بها محمد مفتاح على المستوى الفكري والنقدي معاهي أطروحة التفاعل، أو ثقافة التعايش بين المفاهيم والمناهج على اختلاف مرجعياتها ومقصدياتها.

فعلى اختلاف طبيعة المفاهيم يعمل الناقد على التوليف بينها، وجعلها في نسق واحد، أي إن مفاهيمه محكومة بمفهوم النسق.

فالإطار المنهجي الذي يأخذ به محمد مفتاح في تعامله مع المصطلح توطره النظرة الشمولية للكون وللمفهوم معا رافضا ثقافة القطيعة.

4- مبدأ التدرج:

من أهم المبادئ التي يتبناها محمد مفتاح أثناء تشريحه للمفاهيم مبدأ التدرج إذ يرى بأن كل مقولة من المقولات يمكن تدرجها إلى ثلاث تدرجات؛ وقد درج بعض الباحثين مقولات منها إلا أنها لم تدرج جميعها.. فقد أفضى به هذا المبدأ إلى تجاوز الثنائيات "المتداولة المبسطة التعقيدات مثل: النص اللانص، المعنى الحرفي المعنى المجازي، المعنى الواضح، المعنى العمي، الاستقراء/ الاستنباط، النص المسطح النص المركب، النص الطبيعي، وشبه النص والنص والتناص، والنصنصة [...] وقد أدى بنا هذا التدرج إلى تصنيع تراثنا للمفاهيم حسب الخاصيات المطلوبة مثل خاصيات التعدية والتناظرية والتكافؤية وتدرجا للمفاهيم المقارنة المعتمدة على نظام تسلسلي وقاعدي"⁽³⁰⁾. هذا المبدأ تناوله الناقد في كتابه " المفاهيم معالم " واعتمد عليه في كتابه " التشابه والاختلاف " كآلية حينما درس مفهوم التماسك⁽³¹⁾.

الترجمة والتعريب:

كانت هذه -إذن- أهم الاستراتيجيات التي تبناها الناقد في تعامله مع المفاهيم/المصطلحات، والتي كانت وفق آليات عديدة من أهمها آلية الترجمة. حيث ركز محمد مفتاح عليها في نقله للمصطلح النقدي الغربي في ضوء تصورهِ النظري لها بأنه "يوجب حين ترجمة مفهوم من المفاهيم إمعان النظر قبل الترجمة، والتأمل في الأبعاد والنتائج المؤدية إليها في الثقافة الخاصة حتى يمكن أن تتلاءم مع ما يترجم أو يفترض / أو (يعرب) مع تلك الثقافة"⁽³²⁾. وهذا ما يؤكد أن الناقد يلح على ضرورة إقامة حوارات مع مرجعيات المصطلح في بيئته الأصلية، والاهتمام بالمفاهيم قبل نقلها إلى تربة معرفية جديدة، والابتعاد عن الترجمة الحرفية.

ففي معرض حديثه عن نظرية جماليات التلقي عند ياكوس Jauss يرى بأن "النقل الحرفي لهذه النظرية لا يكون عام الفائدة لأنه قد يلغي بعض الظواهر الثقافية

الهامة في مجتمع من المجتمعات.⁽³³⁾ ففي مقابل رفضه هذا يدعو إلى التحقيب إذ يرى بأنه من "الضرورات الملحة لإنجاز غايات متعددة منها تطلعات معرفية وعلمية، ومقاصد إيدولوجية ووظائف اجتماعية"⁽³⁴⁾. فهو يعمد إلى إعادة النظر في مرجعيات المصطلح قصد ضبط حدوده الدلالية.

وكانت قضية الترجمة موضوع مناقشة، ويتجلى هذا في دراسته لدرجات الأيقون وترجمة الشعر إذ يقول "حاولنا تصنيف الأيقون إلى درجات، كل درجة منه تناظرها ترجمة معينة، وقد أصبحت درجات هذا التصنيف، بمثابة قواعد لتقويم الترجمة وتقنينها"⁽³⁵⁾. وبناء على هذا يلح على أن ترجمة أي نص تتطلب مراعاة جملة من المحددات التي تتصل بالسياق والقارئ والتواصل وشكل ونمذجة للأيقون. أي إن على المترجم أن يراعي مقصدية المؤلف والنص في حد ذاته، والمتلقي لهذا النص.

كما يعتمد الناقد على التعريب-إلى جانب اعتماده على آلية الترجمة- في نقل المصطلح، والمصطلحات المعربة كثيرة منها السيميوطيقا والأيقونالغينومينولوجيا، السيميائية،⁽³⁶⁾... وغيرها من المصطلحات. ويتبنى أيضا آلية النحت في بعض الأحيان لوضع المصطلح ولضبط مفهومه.

وهكذا فإن التصور النظري للمفهوم عند محمد مفتاح، تصور يندرج ضمن الرؤية الشمولية بمنهج تاريخي مقارن بغية ضبط المستوى الدلالي للمصطلح. فالمفاهيم في خطابه النقدي متفاعلة، إذ تجده يسعى إلى ضبطها بالعديد من المبادئ سواء أكان مبدأ المقارنة، أم التدرج، أم التحديد، أم التحليل النسقي الشمولي أم التكييف، وغيرها. وهكذا كرس الناقد كل هذا من أجل تحليل الخطاب الأدبي برؤية نسقية شاملة، وضمن مشروع متكامل الذي بدأ مع كتاب التلقي والتأويل، مروراً بالتشابه والاختلاف، والمفاهيم معالم، وصولاً إلى الأجزاء الثلاثة لكتاب مفاهيم موسعة لنظرية شعرية.

الهوامش:

- (1) : ثامر، فاضل. اللغة الثانية. المركز الثقافي العربي، 1994 ، ص: 170.
- (2) : المسدي، عبد السلام. قاموس اللسانيات مع مقدمة في علم المصطلح. الدار العربية للكتاب، د ط، 1984، ص: 11.
- (3) : المرجع نفسه. ص: 13.
- (4) : حجازي، محمود فهمي. الأسس اللغوية لعلم المصطلح. دار غريب للطباعة والنشر ، 1995 ص: 12.
- (5) : عزام، محمد. المصطلح النقدي في التراث الأدبي. دار الشرق العربي، بيروت، د ط، د ت، ص: 7.
- (6) : بن عيسى، عبد الحلیم. المصطلح التراثي في الدرس اللساني الحديث. مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، ع 5 ، ربيع الثاني 1426/ماي 2005، ص: 81.
- (7) : المرجع نفسه. ص: 81.
- (8) : إبراهيم، عبد الله. المطابقة والاختلاف. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2005، ص: 559.
- (9) : المرجع السابق. ص: 959
- (10) : المومني، قاسم. في قراءة النص. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1999، ص: 123.
- (11) : لحميداني، حميد. سحر الموضوع. منشورات دراسات سال، المغرب، د ط، 1990، ص: 14.
- (12) : وغليسي، يوسف. إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد. الدار العربية للعلوم ناشرون، 2008 ص: 59.
- (13) : مفتاح، محمد. التشابه والاختلاف،، نحو منهجية شمولية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب 1996 ص: 6.
- (14) : مفتاح، محمد. دينامية النص. المركز الثقافي العربي، بيروت 1990 ص: 5.
- (15) : مفتاح، محمد. المفاهيم معالم. نحو نسق تأويلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب ، 1999 ص: 6.

- (16) : المرجع نفسه. ص: 7.
- (17) : المرجع نفسه. ص: 8.
- (18) : المرجع السابق. ص: 10.
- (19) : المرجع نفسه. ص ص: 10-11.
- (20) : السويرتي، محمد. شعرية ما بعد حداثة، مطبعة الأمنية(الرباط)، ط 1(1999) ص: 133.
- (21) : شكري، اسماعيل وآخرون. التأسيس المنهجي والتأصل المعرفي، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء المغرب 2009 ص: 34.
- (22) : الداوي، محمد وآخرون. التأسيس المنهجي والتأصل المعرفي. ص: 254.
- (23) : يقطين، سعيد وآخرون. التأسيس المنهجي والتأصيل المعرفي. ص 23.
- (24) : مفتاح، محمد. مفاهيم معالم. ص: 12.
- (25) : مفتاح، محمد. التلقي والتأويل مقارنة نسقية، المركز الثقافي العربي 2001، ص: 115.
- (26) : للاطلاع أكثر ينظر مفتاح، محمد. تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص. المركز الثقافي العربي 2005 ص 119 وما بعدها.
- (27) : مفتاح، محمد. المفاهيم معالم. ص: 11.
- (28) : ينظر المرجع نفسه. ص 134.
- (29) : مفتاح، محمد. النص من القراءة إلى التنظير. شركة النشر والتوزيع المدارس الدار، البيضاء المغرب 2000 ص: 118.
- (30) : المرجع السابق. ص: 12.
- (31) : للاطلاع أكثر: مفتاح، محمد. التشابه والاختلاف. ص: 41.
- (32) : مفتاح، محمد. المفاهيم معالم. ص: 15.
- (33) : مفتاح، محمد. النص من القراءة إلى التنظير. ص: 47.
- (34) : مفتاح، محمد. المفاهيم معالم. ص: 122.
- (35) : مفتاح، محمد. التشابه والاختلاف. ص: 210.
- (36) : ينظر التشابه والاختلاف ص 198. النص من القراءة إلى التنظير ص 110. تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص. ص 9.